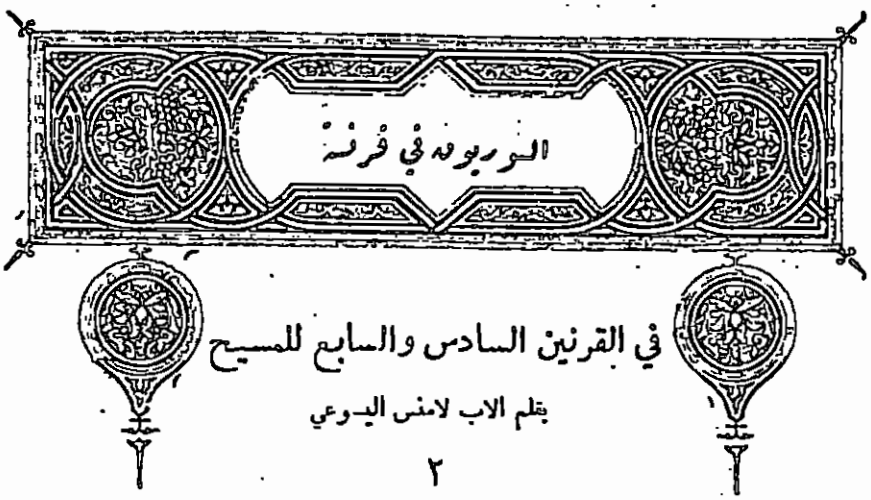

في القرنين السادس والسابع للمسيح

بقلم الاب لامنس اليسوعي

٢

من واجبات حسن الادارة والسياسة في الدولة مساعدة تجارتها في الخارج ، والعمل على اقرار الثقة في اعتماداتها الوطنية . ولم يعدم السوريون هذه المساعدة في احتلالهم السوق الميروفنجية . فانه ، مهما انتقدنا على الامبراطورية البيزنطية كثرة ضرائبها وشدّة جباتها ، فلا يسعنا الا الاقرار بالحماية التي كانت تشمل بها رعاياها في الخارج . اذ كانت تعتبر التجّار منهم كالمدافعين عن الفكرة الامبراطورية وناشري النفوذ البيزنطي . ثم ان المشاكل النقدية وتقلبات العملة لم تكن ، في ذاك العصر ، اقل تأثيراً حيوياً منها في عصرنا . وقد كان لبيزنطية ، في هذه النقطة ايضاً ، مركز سام متميز عن مركز سائر الشعوب بفضل ما كانت تبديه دائرة المالية فيها من الدقة وحسن الادارة . وانه لمظهر عجيب في التاريخ العالمي ان تكون تلك الامبراطورية لم تتأخر مرة واحدة مدة ثمانية قرون عن دفع ما عليها . واذا كانت الثقة باعتماداتها عظيمة في الخارج ، وكانت عملتها جارية في كل مكان . وفي جميع المعاهدات والاتفاقات المعقودة بينها وبين غيرها من الدول ، كانت سياستها الامبراطورية تحتفظ باحتكار سكّ العملة الذهبية احتفاظها بحق قيصري . حتى ان دولة الساسانيين ذاتها ، عدوّتها التاريخية ، كانت تقرّ بهذا الحقّ وتخضع لهذا الشرط . فكان ذاك الانتصار المالي يعزّي قياصر القسطنطينية عن انكساراتهم الحربية ، فيفتخرون بانهم لا يزالون السائدين على العالم .

وكم كانت مفضلةً هذه السياسة الثابتة المستديمة على التجّار السوريين ،

وسط الاضطراب المالي العامّ الذي ولي الاكتساحات البربرية . فان الصيارفة والتجار السوريين كانوا الحاصلين وحدهم على الصلة الجارية في العالم كله . فكانت الثقة كلها فيهم والحركة الصيرفية متجهة الى مؤسساتهم . وهل كان بامكانهم الا يستفيدوا من ذلك . على ان الغالّين كانوا ينظرون الى تلك الحالة من جهة معاكسة ، فيتذمّرون منها ويحتجون على المضاربات والتلاعبات المالية التي يقوم بها السوريون . ونحن نقول القول نفسه اليوم عن الاميركيين والهولنديين والانكليز الذين يهزأون باحتجاجاتنا ، وينسبوننا بدورهم الى روح التسلّط وحب السيادة على الكون . وان المؤرخ يخطأ خطأً فظيعاً اذا بنى احكامه على شهادة فريق واحد . وبايّ حقّ يمكنه ان يفرض التجرّد الانجيلي في قوم هجروا اهلهم وبلادهم في سبيل الربح والثروة ؟

واني ارى احد كهنة مرسيلية في القرن الخامس ، المدعوّ سلفيانوس ، يقع عن غير قصد في هذا الخطأ المشار اليه . فيسمعنا لا صوت الاخلاقي المسيحي فحسب ، بل احتجاج الوطني الغالي ايضاً . وان هذه الصفة المزدوجة كانت ابعد من ان تحمله على الرفق والعطف . فهو ينقضّ ، في احد احتجاجاته الشديدة اللهجة ، على مساوئ الاخلاق وارباب المفاسد ، فينحي باللائمة على الغاليين والفرنج ، ويصل الى السوريين « الذين احتلّوا بجمهورهم جميع المدن »

« *Syrorum turbas qui majorem ferme civitatum universarum partem occupaverunt.* »

وذلك دون ان يميز او ان يجتهد في التمييز بين السوريين وسائر الشرقيين . ومن الصعب الاعتقاد بان السوريين وحدهم كانوا يحتلّون مدن غالية . ولكن مهما يكن من أمر فان سلفيانوس يتّهمهم جميعاً بانهم لا يفتكرون الا بالدسّ والكذب والخداع ؛ وانه ليس من اعمالهم ومآتيهم ما يمكن نسبته الى التجرّد والاخلاص ؛ « وانهم يعتبرون كلاماً ضائعاً كل ما لا يفيد مصالحهم . »[1]

si non perire admodum verba autumant quæ nihil loquentibus prosunt. »

وهو ينسب الفرنج ايضاً الى الخيانة والمكر والحنث ؛ وكل القطمة على هذه

(١) مجموعة الآباء اللاتين ، لبن ، المجلد ٥٣ ، العمود ٨٧

الوثيرة من الاحكام القاسية التي تظهر ان الاخلاقي المرسيلي لم يكن ليتحفظ في اطلاق كلماته . ومما لا شكّ فيه ان سلفيانوس عاشر بعض السوريين فابغضهم جميعاً . ولكن ما يهمّنا خاصة هو شهادته عن اهمية الجوالي السورية اذ ذاك ، وانتشارها في انحاء غالية . ومن المرجّح انه كان في مرسيلية ، وهي ميناء الشرق ، جالية مهمة . وفيها قد يكون سلفيانوس عرف السوريين . ولو ترك هؤلاء مذكراتهم لعرفنا كيف كان اصحاب المكوس وارباب الجمارك المرسيلية يعاملون مهاجري الشرقيين . ونحن نعرف مهاجرًا فقد قسماً كبيرًا من بضاعته ، وكان وسقاً من الزيت ؛ ونعرف انه شكا من تلك الظلامة وطلب تحصيل حقه ؛ ولكننا لا نعرف هل نال ما طلبه .

التأم في زيونة ، في اواخر القرن السادس ، مجمع نرى في خلاصة اعماله ذكرًا لليونان والسوريين بين الشعوب القاطنة الجهة الزيونية من بلاد غالية . وان هذا الذكر يفيدنا ما تحققناه سابقاً من وجود جوالي السوريين وتنظيمها كشعب او جماعة مقرّرة . ويفيدنا ايضاً اهمية هذه الجوالي من حيث عددها ونفوذ ابنائها . والا لما فهمنا اهتمام المجمع الزيوني ، وهو يسنّ الشرائع لجميع المؤمنين ، بان يسيهم خاصة الى جنب « القوط والرومان » ، اهمّ العناصر التي كانت تؤلف جمهور السكّان في غالية الجنوبية . ونرى ايضاً بارتياح ان المجمع ميّز بين اليونان والسوريين ، فنأسف ألّا يكون كتّاب القالبين لجأوا دائماً الى هذه الطريقة في التمييز . وهم لو فعلوا لتجنّبوا كثيرًا من التشويش والابهام ، ولأمكننا من ان نعطي ما لقيصر لقيصر ، وما للسوريين للسوريين بكل عدالة وانصاف .

كان يجري في تلك الجوالي السورية حوادث غريبة منها ما يقرب من نوع الروايات يختلط فيها الهزل بالجدّ ، ولا يكون افضل دور فيها من نصيب الوطنيين القالبين . من ذلك ما جرى للسوري أوفرون الذي كان مقيماً في بوردو في منتصف القرن السادس ، قبيل عقد المجمع الزيوني . ووجوده هناك يدلّ على ان للسوريين موهبة خاصة في فهم الجغرافية التجارية ، واكتشاف مراكز الاعمال الرابحة ؛ فانهم بعد ان نزلوا مرسيلية ، وانتشروا في وادي

الرّون ، وصلوا الى مينـاء بوردو ومنها الى وادي الغارون . كان اوفرون المـذكور قد حصل ثروة طـائلة ؛ فاراد اسقف بوردو ان يدخله في رجال اكليروسه . ولم يكن للسوري ادنى استعداد يدفعه لقبول الدرجات الكهنوتية ، ولا يشعر باقل ميل الى الحياة الاكليريكية . على ان هذا لم يمنع الاسقف من الزعم انه اعرف من الرجل بدعوته الدينية ، وغايته ، في كل ذلك ، ان يصل الى ثروته الطائلة ، كما يقول غريغوار التوري (*inbiens facultatem ejus*) . فنجح بان قصّ شعر اوفرون كي يمدّه لقبول الدرجات . فما كان من هذا الا ان هرب من المدينة مدة ، ولم يرجع اليها حتى عاد شعره فنبت وطال .

على ان مصيبته لم تقف عند هذا الحدّ . كان عنده ذخيرة من بقايا القديس سرجيوس . وهو قديس مشهور في سورية يضـارع القديس جرجس في سعة الذكر . يشهد بذلك انتشار اسم سركيس ، وهو تصحيف سرجيوس ؛ وان بني تغلب كانوا يتقدّمون للحرب ، واما مهم لواء القـديس ؛ وأنه بنيت على اسمه مدينة سرجيوپوليس التي حفظت آثاره ، وهي المدينة التي كان يدعوهـا العرب الرصافة ، وموقعها شمالي بلاد تدمر ، قرب الفرات . فحـدث يوماً ان شبّت النار في الحي الذي كان يسكنه اوفرون في بوردو ، فالتهمت المنـازل جميعها إلّا بيت السوري المذكور . فانتشر الخبر ان ذخيرة القـديس سرجيوس المذكور تجعل حاملها سالماً من جميع المخاطر ، فاغتنم اعداء اوفرون تلك الفرصة ، وابلغوا الخبر ارباب السلطة في المدينة فانتزعوا منه ذاك الكنز الثمين .

وهاكم في ما يلي مظهراً آخر من مظاهر الهجرة السورية في غاليـة . ان جميع السوريين لم يسعدوا بالحصول على الملايين كاوفرون المذكور ، ولكنهم لم يفقدوا صفاتهم الاصلية وعاداتهم الشعبية لاسيما حبّ الضيافة الذي شهرهم في بلادهم وحفظوا تقاليده المجيدة حتى في ارض هجرتهم ، كمـا نرى في سيرة القديس كولومبان . كان الملك تيباري الثاني قد نفاه من ارضـه ، فوصل مع رفاقه الى اورليان . ولم يكن احد من سكان المدينة يجسر فيأويه في بيته او يحسن عليه بقطعة خبز ، خوفاً من الملك . فجعل القديس ورفـاقه يهيمون حزانى في اسواق المـدينة ، حتى صادفتهم امرأة سورية . فشعرت بجيرتهم ،

وسألتهم من هم وماذا يريدون . فاجابوها انهم غرباء مطرودون ، وانهم عبثاً كانوا يطرقون جميع الأبواب . فقالت السورية « ادخلوا ، يا سادتي ، بيت خادمتكم لتجدّدوا قواكم . فانا ايضاً غريبة ، أتيت من بلاد الشرق البعيدة » «ex longinquo Orientis solo» . فتبعوها فرحين واستراحوا في بيتها بينما كانت تعدّ لهم الطعام . وقد صادفوا في البيت شيخاً اعمى عرّفته اليهم قائلة : « هو زوجي ، وهو ايضاً سوري المولد «ex eodem genere Syrorum sicut et ego.» وانا ارافقه في كل مكان منذ فقد نور عينيه من سنين طويلة « quem per multorum curricula annorum luminibus privatum trabo.»[1]

ولم ترد المرأة الصالحة ما يمكننا فرضه وهو انها كانت تقوم بنفقة البيت من عمل يديها . أوَ ليس في هذا غاية اللطف ومنتهى الفضيلة والبساطة ؟

وقبل هذا الحادث ببضع سنوات ، زار اورليان الملك غونتران ، فتلقته الجالية السورية بالابتهاج ، وسارت للقائه رافعة اعلامها وراياتها ، منشدةً الاغاني والاهازيج ، هاتفة بلغتها الاصلية اي اللغة السريانية . وكان السوريون ، مع حفظهم هذه اللغة ، يصطنعون في معاملاتهم التجارية اللغة اليونانية ، دون ان يهملوا اللغة اللاتينية التي كانت قد صارت لغة البلاد . فيظهرون من ذلك العهد ، استعداداتهم العجيبة لحفظ اللغات المختلفة . اما في استقبال الملك غونتران ، فتكلموا ، كما قدمنا ، لغتهم الاصلية التي كانوا يتحادثون بها في مجتمعاتهم الخاصة ، وانشدوه دون شك قطعاً مأخوذة من تراتيلهم الطقسية .

تدلّ هذه الحوادث على انه كان في اورليان ، كما رأينا في مرسيلية وزيونة ، جالية سورية وافرة العدد . وهي تُذكر الى جنب لاتين اورليان ويهودها ، فتؤلف احد العناصر الثلاثة المهمة في سكان البلدة . وتراها منظّمة ، مستقلة محافظة على لغتها وعاداتها . . . وعليه فلم يبالغ كثيراً سلفيانوس اذ صوّر السوريين يحتلون اكثر المدن الغالية « majorem partem universarum civitatum » .

ولم يكن مهاجرو السوريين ليصرفوا اهتمامهم عن ليون وهي من كبرى حواضر غالية . واننا نرى الرُقُم تذكر ، قبل سقوط الامبراطورية الغربية ،

١) مجموعة الآباء اللاتين ، لمين ، المجلد ٨٧ ، ص ١٠٣٥

ان في ليون جالية شرقية مهمة. وليس هناك ما يدفعنا الى الظنّ ان هذه الجالية اضمحلت بعد الاكتساحات البربرية . ونحن نرى ايضاً في الرُقم الليونية اسماء نساء سوريات تزوّجن برجال من قدماء الجند الروماني. وقد اكتُشف في انكلترة لوحة تعلو قبر امرأة غالية زوجة رجل سوري . وكذلك احدى قبريات ليون تذكر رجلًا اسمه قسطنطين ، اصله من مدينة جرمانيقية ، وهي مرعش الحالية. وتذكر قبرية اخرى اسم ك . قاليريوس انطيوخوس ليبانيوس ، وهو اسم ، على هيأته اللاتينية ، يدل على اصله السوري ، بل اللبناني على الارجح . ولعلّ صاحبه كان من فنيقية اللبنانية ، تلك المقاطعة التي كانت تشمل حمص ودمشق وانتيلبنان ، دون ان يدخل فيها لبنان المعروف . وبواسطة الرقم الليونية نقف على وجود رجل يدعى يوليانوس اما اسمه السوري الاصلي فهو تيم بن سعد . وقد كان من اعيان بلدته كَنَتا ، وهي اليوم قنوات في جبل الدروز . ثم جاء ليون وانصرف للتجارة في منطقتها حتى اصبح يملك عدّة معامل ودوائر تجارية في وادي الرون ، وكانت علاقاته تمتد حتى مقاطعة اكيتانية . وفي العصر نفسه ، على عهد الامبراطورية الاولى ، تتحقق وجود سورية في بيزانسون ، رتمت على نفقتها هيكل هرمس وأروقته . وفي العصر الميروفنجي ، لم يتأخر مهاجرو السوريين عن مساعدة المعابد المسيحية ، ويرى غيلزر (Gelzer) ان بعض كنائس الفرنج مدينة بافضل ما في كنوزها لسخاء — او كما يقول الاستاذ الالماني — « لرساوس ضمير التاجر السوري . » ولا شك في ان كثيرًا من الآثار الفنية في كنوز كنائس القرون الوسطى شرقية الاصل. وقد كان المثري أوفرون المذكور سابقاً من كبار المحسنين لكنائس بوردو . وسنرى غيره من السوريين يفارون كثيرًا على المناصب الاكليريكية ، غيرة لم تكن دائماً مجرّدة .

وان العبادة المسيحية تذكر دائماً للسوريين استهامهم صورة المصلوب ؛ لا الصليب الراقي الى فجر النصرانية ، بل تمثال المسيح المعلّق عليه . فاننا لا نتحقق وجود المصلوب ممثلًا على الصليب ، قبل القرن السابع ، الا في سورية ، ومنها نقلها المهاجرون الى كنائس غالية. وقد بيّن ذلك الاستاذ بريهيه

(Bréhier) بما ليس بعده زيادة لمستزيد ، ولا يتحمل النقض ولا النقد .

وكان في مدينة تور ايضاً جالية سورية في عصر الميروفنجيين . نشعر بذلك اذا ما تصفحنا كتابات غريغوار التوري ، وهي مجموعة ثمينة لا بدّ من درسها لمن اراد ان يدرس انتشار الشرقيين في ذاك العصر . ويظهر ان مؤرخ الفرنج هذا قد عاشر السوريين مدة طويلة ، فهو يذكرهم دائماً ، ويقرّ بان احدهم ساعده على ان يترجم الى اللاتينية قصة اصحاب الكهف او السبعة النائمين في افسس ، التي كانت منتشرة كل الانتشار في بلاد الشرق . ومن عجيب الاتفاق انه بينما كان غريغوار التوري يُدخل ، بمعاونة احد السوريين ، تلك القصة الى الآداب الغربية ، كان محمد يترعرع في مكة ، فسمعها هو ايضاً من تجار السوريين وتأثر بها تأثرًا شديدًا حتى انه لم يتردّد في ادخاله قرآنه في ما بعد ، جاعلًا منها برهاناً قاطعاً على عقيدة قيامة الاموات .

يذكر المؤلف تيودوريطس[1] ان جميع حوانيت رومة كانت تعرض ، بين سلعها ، دُمى تمثل القديس سمعان العمودي الانطاكي الشهير . على اننا نجهل هل ادخل السوريون هذه العادة في غالية الميروفنجية . ولكن هاكم شاهدًا غريباً على ما اتصفت بهم جاليتهم في باريس من روح الجرأة والاقدام .

في بوردو ، لم يكن للمثري أوفرون السوري الّا ان يشاء . فيرقى الدرجات الاكليريكية ويرث كرسي اسقف تلك المدينة . اما في باريس فاننا نرى احد مواطنيه المدعوّ اوسابيوس يطمح الى الاسقفية ، فيشتري اصوات الناخبين الذين لم يتردّدوا في قبض ماله ، وانالته ما شاء . ولم يستقرّ به المركز ، على قول غريغوار التوري ، حتى صرف جميع موظفي الكرسي الاسقفي وابدل بهم مواطنيه السوريين . وهو عمل في النهاية من الجرأة لا نعرضه هدفاً للاعجاب ، ولكنه يدلنا على ما وصل اليه السوريون من النفوذ والتأثير وما اختصوا به من الحركة والاقدام في فرنسة في القرنين السادس والسابع .

هذا ويجدر بنا ان لا نقف عند هذا المشهد . فانه ، وان لم تكن اعمال السوريين في فرنسة مرتفعةً دائماً الى الغايات النبيلة — ولا عجب في

(١) الآباء اليونان ، لمين ، المجلد ٣٢ ص ١٤٧٢

ذلك ! — فيجب ألا تنسى الخدمات الجليلة التي ادّوها لبلاد هجرتهم في اوائل القرون الوسطى ، عصر القلاقل والاضطرابات . وان جميع الشعوب التجارية والمستعمرة ، بينا تفتّش عن مصالحها الخاصة ، وتسير لتحقيق منافعها الشخصية ، تراها تعمل ، من غير ان تشعر احياناً ، على ادخال الحضارة واقرار المدنية ، وتعزيز العلاقات النافعة بين الشعوب . لما تقرّر من انه لا تتلاقى مدنيتان الا تأثرت كل منهما بالاخرى فاستفادتا جميعاً . ويصف لنا سيدوان ابوليناريس سيدة غالية تحلّ مردنها على طريقة السوريات ، وتخالف في نولها بين خيوط الذهب والحرير المستورد من بلاد الشرق . وكذلك كان لسورية فضل اطلاع فرنسة على القطن الذي لم تصدره مصر الّا بعد ذاك بزمن طويل .

رأينا ان سلفيانوس بعيد من ان يظهر العطف على مهاجري السوريين . ولكنه بعيد كذلك ، مع معاصريه من الغاليين ، من ان يظهروا اعتباراً لاسيادهم البرابرة الذين باتحادهم مع العنصر السلتي ولّدوا الشعب الفرنسوي الحاضر . اما السوريون في فرنسة فكانوا يمثلون اذ ذاك العنصر المتمدّن الراقي ، فخفّفوا بذلك من غلواء البربر وارقوا نوعاً ما تقدّم البربرية . وكانوا اقرب الى الغاليين ، من هؤلاء الى قبائل الجرمان المكتسحين ؛ فعملوا على تمريد الفرنج والقوط والبورغوند حياة الهدوء والرخاء ، حتى لطّفوا اخلاقهم ومدّنوهم . ثم ان تجّار السوريين ، وان لم يكونوا من غواة الاعمال العقلية ولا الفنانين ، فقد آثروا انحطاط الثقافة اللاتينية القديمة ؛ وعملت جالياتهم على حفظ اللغة اليونانية في بلاد غالية ، بل على تقدّمها ايضاً . اما ما افادوه الغاليين من حيث التأليف فلا يمكن ان يكون توقف على قصة اصحاب الكهف . وان جميع ما ذكرناه ، حتى تدخلهم في الشؤون الكنسية تدخلاً كثير الجرأة بعض الاحيان ، يظهر ان السوريين لم يحصروا حركتهم في محيط التجارة فحسب وقد قال بريهيه (Bréhier) « انهم اتوا الغرب بنظريات جديدة فادخلوا الى غالية ، بفضل نفوذهم ، طرق الشرق في هندسة البناء الدينية ، وفي التصوير والرسم ، وعمل الايقونات ، بل في الافكار الدينية ايضاً . » وان هذه الخدم لجديرة بان تُذكر فتُشكر .